هذه بعض مشاكل تتعنا من التسليم بهذا الراي دون استثناء الى ان تنجلي لنا الحقيقة . ولعلّ القول بان هذه الصورة من معجزاته تعالى اصحّ واصدق كما يرتاي كثيرون من الكاثوليك والله على كلّ شيء قدير

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٣ انهار لبنان : منافعها واضرارها

منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً

ذكرنا غير مرّة غنى لبنان بينابيع المياه وما يترتّب على ذلك من الفوائد الهدروغرافيّة فنقول الآن انّ من اعتبر هذه الجبل ورأى هيئتهُ وموقعهُ فهم ان قربهُ من البحر لا يسمح للانهار الجارية منهُ ان تتّسع أحواضها اتساعاً كبيراً . والاحرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعةً واحدة الى البحر . وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زوروقًا ان يجري فيهِ لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخلّلها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الّا ما لم يذهب ماؤهُ في فصل القيظ مباشرةً من الشمال الى الجنوب (١) . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافيّة التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امر

١ً النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ً نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢ = ٣ً نهر ابراهيم = ٤ً نهر الكلب = ٥ً نهر بيروت = ٦ً نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انّها تسقي بعض السهول الساحليّة

---

١) انّ نهر العاصي يستمدّ اكثر مياههِ من لبنان لكنّ مسيلهُ خارج عنهُ

٢) لا نذكر نهر الجوز قرب البترون لانّ ماءهُ ينقطع في فصل الصيف

فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول. وربَّما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغًا. ولو اراد اهل بلادنا لانتفعوا من هذه المياه لغاية أخرى وذلك بان يجعلوها كمحرك لادوات كهربائية يتخذونها لمآمابهم ولذلك سنى البعض قوَّة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انَّها تقوم مقام البخار ومراقد الفحم الحجريّ. ولمَّا كان مهبط هذه المياه شديدًا وكميتها وافرة لا غرو أن ينجم عنها قوَّة تناسب خيولًا بخاريَّة عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللًا فان مصبَّها يتَّسع اتساعًا كبيرًا وذلك لما تأتي به المياه من التراب المجروف ولما يدفعهُ البحر الى الساحل من الرمل فتتكوَّم هذه الموادّ في وجه النهر بحيث لا تقوى مياههُ على خرقها فتتدفَّق جوانبهُ وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة. وربَّما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حُمَّيات ملاريَّة خبيثة. وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظهُ العلماء في البحار التي يضعف فيها المدّ والجزر. لكنَّ هذا الخلل يسهل استدراكهُ بان يُحفر للنهر مسيل عند مصبّه. وكذلك تُنصب اشجار الاوكالبتوس على ضفافهِ لتزول بها وخامة الهواء

وفي مقالتنا السابقة بيَّنا ان النهرين البارد والبا علي بما سحباهُ من التربة من اعالي لبنان طمَّا جيِّدًا عكَّار وكوَّنا سهل طرابلس المعروف بجودة مزروعاتهِ. ولعلَّ نهر بيروت اتى بما هو اغرب فعلًا منهما

فكلٌّ يعرف ان مدينة بيروت مبنيَّة على شبه جزيرة يتَّصل بها البحر شمالًا وغربًا وجنوبًا غربيًّا. وقد ارتأى بعض العلماء ان مركزها انَّما كان في سالف الزمان جزيرة تحدق بها المياه من كل جهاتها (١ فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة لهُ كوادي غدير ووادي شويفات تأتيها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبيَّة الشرقيَّة بينما كانت الرياح الغربيَّة تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متَّصلة بالبرّ وجرى لها ما جرى لمدينة صور لمَّا ابتنى لها اسكندر ذو القرنين سدًّا عظيمًا وصل بينها وبين البرّ فتراكمت الرمال على هذا السدّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها. ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سوريَّة امر ظاهرٌ فترى الرمل يتقدَّم دون انقطاع. ومما شهد على صحَّتهِ الثقةُ ان معدَّل امتداد الرمل

١) راجع كتاب ريتر (ص ٤٣٠)

في كل سنة بين مدينتي غزّة ويافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتّخذون قديمًا ألواء الرمل سكنًا لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيّبة دسمة. والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجدهُ الحافرون من الخزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس. والرملُ قد نشر عليها كلّها ردائهُ وهو لا يزال يجري الى الامام. ومن يلاحظ حركتهُ المتواصلة يتأكد بانهُ في مدّة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاكًا متّسعة لبعض الوجهاء فالتهمها. ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدةٍ توارت تحت ألواء الرمل. ومما أثبتهُ الشاعر نونُس(١ عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجهِ من بيروت ميمّمًا صيداء انها «رمليّةٌ تظلّلها الاشجار ودوالي الكروم» على انَّ الشاعر لم يذكر التلال الرمليّة التي تتخللها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على انَّ الرمل لم يَغطُ عليها بعد. ومن الثابت المقرّر انَّ العوامل الطبيعيّة لا تزال تذرّي هذه الرمال فتجرف مياه البحر وتنسفها الرياح حتى تكاد نرى حركتها رأي العين فما قولك بعملها على كرور الادهار لاسيّما اذا اضفتَ الى هذه العوامل ظواهرَ أُخر خارقة العادة كالزلازل والاهتزازات الارضيّة التي ربّما رفعت بحضيض الارض وميل الاودية. وفي سواحل فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتَينا عن الزلازل في المشرق ١: ٣٠٣ و ٢: ٩٧٠)

ومما يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجيّة انَّ هذه المدينة كانت في سالف الزمان مزدانةً بعدّة جزائر لا نرى اليوم منها اثرًا. فانَّ الشاعر اليوناني نونُس (٢ اشار اليها في جملة وصفهِ لبيروت فدعا هذه المدينة «الجميلة الجزائر εὔνησος» وهي لعمري شهادة حسنة اتى بها شاهدُ عين سكن بيروت ردحًا من الدهر لم يفتهُ شيء من احوالها. وقد جاء في خارطة لاتينيّة يرتقي عهدها الى القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسّطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٣. وكذلك ورد في تواريخ الصليبيين انَّ الرهبان المعروفين باسم پريمنتراي (Prémontrés) كانوا

١) راجع كتاب نونس ج ٤١، ب ٤٠ - ٤٥ Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45

٢) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)

٣) راجع المجلّة الفلسطينية الالمانية (Z D P V, XVIII)

يسكنون ديرًا موقعهُ في جزيرة على مقربة من بيروت (١ . وفي هذه الشواهد ما يدلُّ على انَّ هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس بيروت او عند مصبّ نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نصّ صريح ومن المرجّح انَّها انخسفت في الزلزال الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (٢ في تاريخ سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكّة وطرابلس غاصت في لجج البحر . وقولهُ هذا يطابق الآثار التاريخيّة التي لم تُعد تذكر فيما نعلم الجزائر المجاورة لبيروت بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاوَّلي وهو نهر صيداء ثم الليطاني الذي يحدُّ لبنان في جنوبيّه وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة التي يجاورها وقد اغناها بمنافعه الجمّة الاقتصاديّة . ونهر الاوَّلي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طولهُ ٤٥ كيلومترًا اما الليطاني فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخلّلها . ومنبعهُ في البقاع بين الجبلين الغربيّ والشرقيّ وطول مجراهُ ١٥٠ كيلومترًا . وخطرهُ عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانهُ ليس فقط يفتح طريقًا في خلال الجبل كما يفعل الاوَّلي ولكن ايضًا لانَّ هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهول فيحاء وبطائح غنّاء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غرو ان تجار صور من الفينيقيين قدّروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبةً في الارباح البالغة

امّا وادي الاوَّلي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطرًا الّا انهُ اغنى منهُ واخصب وفي سيره على ضفّتيه مسالك وطرق تُفضي الى البقاع الى عدّة قرى كان الاهالون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلّاتها كما يفعل اهل صيداء في ايّامنا في القرى الواقعة قرب البارُوك وجنوبيّ جزّين

ولولا الاوَّلي والليطانيّ لما وُجدت صور وصيداء فان بُناتها اختاروا مصبّ هذين النهرين لما كانوا ينتظرونهُ منهما من العوائد التجاريّة وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًا لم تبلغهُ بيروت رجيل لخلوّها من نهرين يجديانها من المنافع ما احرزتهُ صيداء وصور بنهريهما

(ستأتي البقيّة)

١) راجع المجلّة ذاتها (ج ١٠ ص ٢١٠ وج ٢١ ص ١١٦)

٢) راجع Quatremère : *Sultans Mamlouks, I, I^re partie*, p. 145